منـــاقشة ختــامية

نستطيع من العرض السابق أن نكتشف بوضوح أن علم الاجتمـــاع قد تطور من خلال الصراع بين مجموعة من المذاهب الفكرية بعضها محافظ يود الحفاظ على وحدة المجتمع وتماسكه ، وبعضها الآخر راديكالى يتصور المجتمع على انه يحوى عمليات مستمرة من الصراع والتغير . ولكن الصراع لم ينته الى قسمة عادلة بين هذه المذاهب الفكرية ، فقد تولدت مجموعة من الظروف ادت الى أن يتطور علم الاجتماع فى خط معين محاولا أن يحاصر كل الخطوط الأخرى التى تناهضه . وكان خط التطور الذى سار فيه العلم هو ذلك المرتبط بمشكلة النظام العام فى المجتمع . ولا يعنى ذلك أن الجوانب المرتبطة بالصراع والتغير قد أجهضت فى محاولاتها الأولى ، على العكس من ذلك تماما لقد نمت هذه الجوانب وتطورت ولكن نموها وتطورها لم يكن يسير بنفس معدل نمو الجوانب الاخرى التى تدعم النظام ، خاصة وأن تلك الأخيرة قد اكتسبت سيطرة وانتشارا جعلها قادرة على مقـــاومة الجوانب الأخرى ومحاصرتها فى أضيق الحدود .

ولقد حاول هذا البحث فى القسم الأول منه ان يتتبع تطور علم الاجتماع فى المجتمعات الغربيـــة فى ارتباطه بمشكلة النظام العـــام ، محاولا أن يتقصى العوامل الفكرية والبنائية التى جعلته يسير فى هذا المسار يتبنى وجهة نظر معينة فى وصف الواقع الاجتماعى وتفسيره . ولقد اتضح من خلال عرض الاتجاهات الكلاسيكية فى علم الاجتماع — كما تمثلت فى أعمال كونت ودور كايم وماكس.فيبر وبارسونز — أن تطور علم الاجتماع كان تطورا فى فكرة القهر الخارجى التى قدمها الفيلسوف الانجليزى توماس هوبز . ومن هنا كانت العلاقة بين تطور نظريـــات علم الاجتمـــاع وبين مشكلة النظام العام . فلقد واجه علماء الاجتماع السؤال التالى : كيف

يكون المجتمع ممكنا ؟ او كيف يمكن ان نلم شمل المجتمع بطريقة تجعله قادرا على الاستقرار والاستمرار عبر الزمن ؟ ولا شك ان هذا السؤال لم ينشأ من فراغ ، لقد فرضته الظروف البنائية والفكرية التى تحكمت فى تطور علم الاجتماع . فقد قدر لعلم الاجتماع أن يكون « علم الأزمة » . فالتطورات الكبرى التى حدثت داخله قد جاءت اثناء ازمات سياسية واقتصادية مرت بها المجتمعات الغربية ، خلفت مجموعة من الاضطرابات ومظاهر التفكك والخلل . وكان على علماء الاجتماع ان يقدموا لمجتمعاتهم الصيغة التى يمكن ان تخلصها من مظاهر الخلل والاضطراب هذه . ومن ثم وضعوا امامهم السؤال السابق : كيف يكون المجتمع ممكنا ؟ ويلخص هذا السؤال مشكلة هوبز الشهيرة عن النظام العام الاجتماعى : كيف يمكن خلق النظام اذا كانت الحياة الاجتماعية تقوم على حرب الكل ضد الكل ؟ وجاء حل العلماء لهذه المشكلة تطويرا لنفس فكرة القهر التى حل بها هوبز مشكلة النظام على اختلاف نوعية الحلول التى قدمت لها .

١ — قدم كونت حلا وضعيا يستلهم روح العلم فى فهم المجتمع ، او النظام العام ويعمل على تفسيره وتشريحه بعد أن يرسى دعائمه . انه حل يقوم على فكرة الاتساق العام فى المجتمع ، فهذا الاتساق هو اساس النظام والتقدم جناحا الفلسفة الوضعية ، والمجتمع كل مترابط يصنع الأفراد ويشكلهم وفق اهدافه .

٢ — وقدم دوركايم حلا قهريا عندما ركز على فكرة الضمير الجمعى الذى يخلق ضربا من ضروب التماثل الجمعى العقلى والعاطفى بين الأفراد ، ومهما تعددت صورة المجتمعات وانماطها فانها تخضع دائما لمجموعة من القواعد والتقاليد التى تضبط سلوك الأفراد وتقهرهم . والفرق بين المجتمعات يكمن فى نوعية هذه القواعد (فهى قواعد عرفية فى مجتمع التضامن الآلى ، وقواعد قانونية تعويضية فى مجتمع التضامن العضوى) .

٣ ــ اما بارسونز فقد قدم حلا معياريا : فعلاقات التفاعل الاجتماعى بين الأفراد قائمة على تشربهم لمجموعة من القيم والمعايير التى تعد اطارا عاما موجها لهم فى حياتهم اليومية . ويحـــاول كل مجتمع أن يكسب افراده معاييره وقيمه ليحقق بينهم ضربا من التفاعل المستقر بحيث يصبح المجتمع فى النهاية شبكة متناغمة من علاقات التفاعل ، أو نسقا اجتماعيـــا متوازنا يتغلب باستمرار على كل مظاهر الصراع والتوتر والتغير .

ولا نستطيع أن نجزم بالقول بأن العوامل البنائية وحدهـــا هى التى جعلت هؤلاء العلماء يتخذون من مشكلة النظام بؤرة اهتمام رئيسية ، فقد كان للعوامل الفكرية اثر كبير فى اتخـــاذ هـــذا المـــوقف . ففلسفة كونت الوضعية كانت رد فعل لانتشار التيار النقدى الراديكالى المنبثق من الثورة الفرنسية ، اما نظريات دوركايم وبارسونز فقد لعبت الماركسية دورا كبيرا فى تشكيلها . فمع قوة ظهور الماركسية ومع انتشارها الضافى فى المجتمعات الرأسمالية التى اتخذت منها موقفا نقديا ، تمسك المنظرون الذين ينتمون الى هذه المجتمعات من الناحية الفكرية بوجهة النظر التى تتخذ من المـــاركسية موقفا نقديا . ومن ثم ساروا فى الخط المرتبط بالنظام وعملوا على تقويتـــه وتدعيمه لايحاصر الماركسية فحسب ، بل ليستخدم ــ استخداما سياسيا ــ لمنع حدوث كل ضروب الصراع والتغير التى تنبأ بها ماركس . فقد ســـار التراث السوسيولوجى الغربى فى خطين : خط نظرى مجرد يضع الأسس العامة للنظرية التى تبرز عناصر الاستقرار والاستمرار بين أجزاء الواقع الاجتماعى ، وخط امبيريقى يتبلور فى جمع كم هائل من الشواهد الأمبيريقية التى تدعم هذه الرؤية النظرية . وفى كلا الحالين يضع أصحاب هذا التراث ما يتوصلون اليه من حقائق وآراء أمام صناع السياسة وملوك الاقتصـــاد والحرب ليستخدموه فى تحقيق مزيد من سيطرتهم على المجتمع ، وفى تحقيق مزيد من الاستقرار للنظام القائم .

ولم يكن من الممكن أن يستمر هذا الحال الى مالا نهاية . فحركة التاريخ

لا تتوقف ، والواقع هو الواقع مهما فرضت عليه من تفسيرات . فالرؤية التى يقدمها علماء الاجتماع رؤية متحيزة تركز على عناصر من الواقع دون العناصر الأخرى ، وتسخر جهودها نحو طمس هذه العناصر الأخرى ومحاصرتها . ولقد حدث أن ظهرت مجموعة من العوامل ادت الى ان يكشف الواقع عن هذه العناصر المحاصرة ، وأن يضع أمام النظريات المرتبطة بمشكلة النظام تحديا بنائيا وضعها فى مأزق حرج . ففى نهاية العقد السابع وبداية العقد الثامن من هذا القرن تفجرت موجات من الصراع داخل المجتمعات الغربيـــة بفعل عوامل الكبح السياسى ، والاستغلال الاقتصادى ، ونزعة الترشيد والعقلانية التى ادت الى مظاهر كثيرة للاغتراب بين جماعات الشباب خاصة . ولقد أدت هذه الموجات الى أن يظهر بناء فكرى جديد وارهاصات بناء اجتماعى جديد أخذ يدخل فى صراع مع البناء النظرى القديم والبناء الاجتماعى القديم . وهنا بدات ازمة علم الاجتماع فى المجتمعات الغربية ، فعلمـــاؤه يعملون وفق المخطط الذى رسموه وتصوروا انه الخط السليم عندما حققت المجتمعات الغربية قدرا من الاستقرار فى الخمسينات وبداية الستينات ، وفى نفس الوقت تسير حركة التاريخ على غير اهوائهم . فيعبر التاريخ عن نفسه ويفجر صراعاته الداخلية ، ويفرز ضروبا من الفكر تغاير الخط الذى يسير فيه هؤلاء العلماء .

بناء على ذلك بدأ العلم الاجتماعى يخبر توترا وصراعا داخليا فى مواجهته لهذه الأبنية الجديدة . فقد بدا يدخل فى صراع معها ، كمـــا أن ظروفه الداخلية لا تجعله قادرا على مواجهتهـــا مواجهة فعـــالة . فهو متورط فى اهتمامات سياسية واقتصادية تجعله يتناقض مع نفسه عندما يدعى الحياد الاخلاقى والموضوعية ، كما أنه افرز فى وقت مبكر (فى فترة الخمسينات) اتجاها لا يوافق على دعوة النظام موافقة كلية ، ويسعى الى أن يستفيد من نظريات الصراع فى محـــاولة تأليفيـــة بين فكرتى النظام والصراع (آراء دارندورف وكوزر ، ولوكود ، وفان دن برج ، وبيرس كوهين) .

وبدا الصراع بين البناء الفكرى القديم والبناء الاجتماعى الذى يفسره وبين البناء الفكرى الجديد والأبنية الاجتماعية الناشئة التى يعبر عنها ، بدا هذا الصراع وعلم الاجتماع مثقل بهذه المشـــكلات . وقد أدى ذلك الى زيادة توتراته الداخلية ، وتكرار مظاهر فشله أمام هذه الأبنية الجديدة . وافرزت حركة الجدل بين القديم والجديد ما نسميه بالاتجاهات النقـــدية الحديثة فى علم الاجتماع الغربى ، تلك الاتجاهات التى انضمت الى الأبنية الفكرية التى افرزتها لتدخل من جديد فى تناقض مع الاتجاهات التقليدية على طريق الحركة الجدلية بين القديم والجديد والتى ستؤدى فى النهاية الى مجتمع جديد ونظرية جديدة .

ولقد عرضت لهذه الاتجاهات النقدية فى القسم الثـــانى من البحث ، ويهمنى الآن أن أعرض لمجموعة من النتـــائج التى استخلصتها من دراستى لهذه الاتجاهات :

١ — أن هذه الاتجاهات لا تتخذ مسارا واحدا ، فهى تتباين أشد التباين ، ويقوم هذا التباين على العلاقة الوثيقة بين النظرية والمجتمع . اذ أن بعض هذه الاتجاهات يبدأ بنقد النظرية ايمانا منه أن نقد النظرية يمثل نقدا للمجتمع الذى تفسره هذه النظرية . وبعضها الآخر يبدأ من نقد المجتمع ايمانا منه أن نقد المجتمع يمثل نقدا للنظرية التى تفسره ، وبعضها يترك النظرية والمجتمع ويتجه الى التنظير بأسلوب يغـــاير الأسلوب التقليدى .

٢ — ومع وجود هذا التباين فان الأسلوب واحد والهدف واحد أمام كل البدائل النقدية . فأسلوب هذه الاتجـــاهات هو النقد ، النقد الذى يقوم على احداث توتر داخل البناء الذى يوجه اليه النقد . والهدف هو تغيير البنـــاء النظرى التقليدى واستبداله بآخر جديد . فالذين يتجهون نحو نقد النظرية يكشف نقدهم عن رغبتهم فى احداث توتر

داخل البناء النظرى التقليدى ، بحيث تتزايد تناقضاته الداخلية فتعجل بتغييره . اما الذين يتجهون نحو نقد المجتمع فان نقدهم يكشف عن رغبتهم فى احداث توتر داخل المجتمع يؤدى الى تغيير دعائمه والأسس القهرية التى يقوم عليها والتى تدعمها النظرية التقليدية . اما الذين يحاولون صياغة بدائل نظرية فانهم يتخذون موقفا نقديا من النظرية التقليدية ومن ثم يحدثون مزيدا من التوتر والصراع داخل بنائها ، ويعبرون عن آمال كل من نقاء النظرية ونقاء المجتمع فى ايجاد نظرية اكثر رحابة من النظرية القديمة .

٣ ــ يترتب على ذلك النتيجة التى مؤداها أن هؤلاء النقاد قد شربوا من منبع واحد وتأثروا باتجاهات واحدة . فبنظرة عابرة على نظرياتهم النقدية نلاحظ تأثرهم بتراث بعض علماء الاجتماع الكلاسيكى وعلى رأسهم ماكس فيبر وماركس ، كمـــا نلاحظ تأثرهم برايت ميلز الذى استطاع ان يجمع بذكاء بين آراء كل من ماركس وماكس فيبر ، هذا الى جانب تأثرهم بتيارات الصراع والحركات الاجتماعية والفــكرية التى ظهرت فى المجتمعات الغربية فى نهاية العقد الماضى . ويمكن أن نستنتج بناء على ذلك ان هذه الاتجاهات تسعى الى تنمية العناصر الجوهرية والمقيدة فى بعض الاتجاهات الكلاسيكية خاصة اعمال ماكس فيبر وماركس مع دمجها ببعض التيارات الفكرية المعاصرة . فقد اكتسب تراث ماكس فيبر تميزا خاصا داخل علم الاجتماع الغربى ، فرغم انه ينتمى الى نفس تياره العام ، الا انه قدم مجموعة من القضايا التى تخالف قضايا علم الاجتماع الغربى الأساسية . أما نظرية ماركس فانها تمثل يوتوبيا يمكن أن نشتق منها الكثير من التفسيرات والبرامج التى يمكن أن تتلاءم مع بعض جوانب حياتنا المعاصرة . وبناء على ذلك فان البديل النظرى الذى يمكن أن يظهر فى علم الاجتماع الغربى ، بعد اكتمال الحركة النقدية سوف يكون مزجا لبعض آراء ماركس وماكس

فيبر ببعض التيارات الفكرية المعاصرة وعلى رأسها الفينومينولوجيا والوجودية وتكشف بعض البدائل النظرية المطروحة ، والتى عرضنا لبعض منها فى الفصل الأخير ، عن صدق هذا الرأى .

٤ ـ واعتقد البعض أن البدائل النظرية التى اتخذت اتجاها فينومينولوجيا تعد محاولات جادة للعبور بالنظرية الاجتماعية من مرحلة الخطر ، والازمة . ولقد أوضحت فى الفصل الأخير من هذا الكتاب أن هذه البدائل قد فشلت فى أن تنفصل انفصالا راديكاليا عن الاتجاهات الكلاسيكية . فالتركيز على دراسة الحياة اليومية ومحاولة البحث المستميت من تصورات الانسان عن حياته وعن الآخرين يؤدى بهذه البدائل الى نفس الاتجاه الذى سارت فيه الاتجاهات التقليدية من حيث الارتباط بالاتجاه المحافظ ومن حيث السعى نحو خدمة الدولة وصناع السياسة ورجال الاقتصاد . ويمكن أن تتغلب هذه البدائل على هذا التصور اذا ما ربطت دراستها للبناء النفسى الفلسفى للافراد ببعض عناصر البناء الاجتماعى ، وهنا تظهر اهمية دراسة القوة ، ودور الصفوة ، والشكل الراسمالى للانتاج ، مع ابراز الجانب الاستغلالى فى هذه العلاقة بين الانسان والمجتمع . ولقد نجح رايت ميلز نجاحا كبيرا فى ذلك ويجب أن تستفيد هذه البدائل من أعماله ، فضلا عن أعمال ماركس وماكس فيبر .

٥ ـ وينقلنا ذلك مباشرة الى التاكيد على ضرورة توحيد حركات النقد فى علم الاجتماع . اذ لا شك أن العرض السابق قد أوضح تباين مسار الاتجاهات النقدية بالرغم من أن هدفها واحد . ففى الوقت الذى يتجه فيه اتجاه النقد السوسيولوجى نحو توضيح تناقضات بناء العلم ، يتجه النقد الاجتماعى نحو توضيح تناقضات المجتمع ، وتتجه البدائل النظرية نحو أحدث الصيحات الفلسفية انتشارا ، وأعنى الوجودية وأدب العبث أو اللامعقول . ويمكن بقدر من التجديد فى أساليب هذه

الاتجاهات فى النقد ان نحقق قدرا من الوحدة فى أسلوبها وهدفها . اذ لا شك أنها جميعا تنطلق من مجموعة من المبادىء الانسانية التى تسعى الى ان تخلص انسان العصر الحديث من كل مظاهر الظلم والكبح والقهر التى يمارسها المجتمع الراسمالى . ويمكن من هذا المنطلق الانسانى ان تحقق هذه الاتجاهات الوحدة فيما بينها ، فيهتم اتجاه النقد السوسيولوجى بنقد المجتمع وابراز هذه المظاهر ، ويهتم النقد الاجتماعى — وهو كذلك بالفعل — بنقد النظرية الى جانب هدفه الأساسى فى ابراز الجوانب الاستغلالية فى الحياة ، وتتجه البدائل النظرية نحو ربط رؤيتها الفلسفية لمواقف الحياة بالاطر الاجتماعية الكبرى التى تؤثر فى هذه المواقف وتجعلها تتخذ طابعا استغلاليا . ويعنى كل هذا ضرورة استفادة كل هذه الاتجاهات من أفكار رايت ميلز فقد استطاع ان يجمع هذه المسالك النقدية الثلاثة فى اطار واحد ، فضلا عن نجاحه البارع فى الاستفادة من تراث ماركس وماكس فيبر .

وبعد هذه المناقشة لابد أن نواجه انفسنا بسؤال على جانب كبير من الأهمية ، ما هى أهمية كل هذه النظريات — تقليدية كانت أو حديثة — لمجتمعاتنا المتخلفة ، وهل يمكن أن تصلح لوصف وتفسير واقع هذه المجتمعات ؟ فذلك السؤال يجب أن يكون نقطة الانطلاق عند اجراء اى بحث علمى فى مجتمعنا المصرى أو عند مناقشة أى قضايا ترتبط ببناء علم الاجتماع المحقق أن نظريات علم الاجتماع الغربى قد فشلت فى ان تحيط ببناء المجتمعات التى نشأت فيها وصفا وتفسيرا ،وهى تخضع هذه الأيام لتيار من النقد واعادة المراجعة . فلا يعقل اذن أن نأخذ هذه النظريات كما هى ونطبقها على مجتمعاتنا او نحاول أن «نحصر» واقعنا «حصرا صناعيا» ليتناسب مع هذه النظريات(١) اذ كيف تتناسب هذه النظريات مع مجتمعنا فى الوقت الذى تخضع فيه لاعادة

---

(١) ان أغلب البحوث التى تجرى فى علم الاجتماع فى مصر تنطلق من نظرية معينة رغم اختلاف هذا الواقع عن واقع المجتمع الذى ظهرت فيه هذه النظرية . وهذا الاتجاه فى البحث يجب أن يتوقف ، فضلا عن انه =

الصياغـــة والمراجعة فى المجتمعـــات التى ظهـــرت فيهـــا . اما عن الدبلل الحديثة فاننا قد رأينا ما يمكن ان يؤخذ عليها من انتقادات . وتلك مشكلة « عويضة » . نأمل ان نعالجها فى دراسة مستقلة غير اننى اود ان اركز هنا على :

١ ــ لابد من التفاعل مع النظريات التى تطورت فى مجتمعات غير مجتمعنا المصرى بأسلوب نقدى . فاذا كانت هذه النظريات تعد بمثابة اطارات معرفية (ابستومولوجية) ظهرت لتعكس واقعا انطولوجيا معينا ، فانه لا يمكن ان نطبقها تطبيقا ميكانيكيا فى كل زمان ومكان ، الا اذا سلمنا بوحدة العالم الاجتماعى وعدم تنوعه ، وهو أمر يصعب التسليم به فى ضوء التطورات المعاصرة فى البحث الفلسفى والأنثروبولوجى .

٢ ــ الفائدة الوحيدة التى يمكن أن تعود علينا من هـــذه النظريات هى أن تعتبر هذه النظريات مصدرا للمفاهيم . المهم تجرد هذه المفاهيم من ارتباطاتها الأيديولوجية والنظرية بحيث توضع فى صياغات نظرية جديدة . وسوف يحقق ذلك غرضين :

(أ) اسهام فى نقد النظريات التى تطورت فيها هذه المفاهيم ، بأن تؤخذ المفاهيم وتوضع فى سياقات جديدة ومعان جديدة بحيث ترد على أصحابها لتثبت لهم أن مفاهيمهم كانت متميزة عندما تمت صياغتها فى ضوء نظرياتهم .

(ب) توفير الوقت والجهـــد اللذين يمـــكن أن يسرفا فى البحث عن مسميات جديدة .

= ينحرف بالمسار الصحيح الذى يجب أن يسير فيه البحث (وأعنى تحليل واقعنا المصرى وتشريحه من خلال استخدام بعض المفهومات والمناهج السوسيولوجية) فانه يشوه الواقع ويضفى عليه ضربا من ضروب الزيف .

٣ ــ الدراسة التتابعية والآنية للواقع فى ضـــوء فروض تتم صياغتها من خلال التحليل النقدى للنظريات ومن خلال الخبرة السوسيولوجيـــة بالواقع .

٤ ــ يمكن لهذه الفروض أن تتبلور فى نظرية (أو نظريات) استرشادية يتم اختبارها وتنقيحها باستمرار .